﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: 60 - 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إخـــراجُ المـــالِ برهانُ الإيمانِ ومـــدعـــاةُ العُجْبِ، وهما في قلبِ المؤمنِ لا يَجتمعان

الآية استتباعٌ لبيان حالِ المؤمنين الذين يخشَون الله تعالى في الجانب العمليِّ الجامع بين الاعتقاد والسُّلوك، وهو إخراج المالِ طلبًا لرضوان الله تعالى، فبعد أنْ أثبت لهم الإيمانَ الخالص الّذي قد يكون مَدّعاةً إلى العُجب نفاه عنهم[1] بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ ليَجمعوا بذلك بين التّحلّي بالإيمان والبُعْدِ عن كلِّ ما عساه أنْ يَشوبَه من عُجْبٍ ونحوه، ثمَّ أخبرَ عنهم بأنَّهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾؛ فأثبتَ لهم بذلك ما فُهم أنَّ ضدَّه ثابتٌ لأضدادهم، فهم وحدَهم يُسارعون في الخيرات، وغيرُهم من الكفّار والمنافقين يُسارِعون في الشّرور.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤْتُونَ﴾، (أتو) يَدُلُّ عَلَى مَجيءِ الشَّيْءِ وإصْحابِهِ وطاعَتِهِ، وأصلُ الإيتاءِ: الإعطاء، آتَى يُؤاتي إيتاءً وآتاهُ إيتاءً؛ أيْ: أعطاه، ويُقال: لِفُلانٍ أتْوٌ؛ أيْ: عطاءٌ، وآتاهُ الشَّيءَ؛ أيْ: أعطاه إيّاه، وآتاهُ على الأمْرِ: طاوَعَه[2]، والإيتاءُ: مُستعارٌ للإنعامِ بالحالةِ النّافعة؛ لأنَّ شأنَ الإعطاءِ أنْ يَكونَ تَمْكينًا بالمأْخوذِ المَحْبوبِ[3]، والمُؤاتاةُ: حُسْنُ المُطاوَعةِ، وآتَيْتُه على ذلكَ الأمْرِ مُؤاتاةً إذا وافَقْتَه وطاوَعْتَهُ[4]،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 159.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أتي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 179.
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).

والمقصودُ بالإيتاءِ في الآية: الإعْطاءُ، وهو مُشْعِرٌ بأنَّ المُعْطَى مَرغوبٌ فيهِ، وهو مُستعمَلٌ في لازِمِهِ، وهو النُّزُلُ[1].

2) ﴿وَجِلَةٌ﴾: (وجل) أصلٌ يدلُّ على استشعارِ الخَوفِ، يُقال: وجِلَ يَوْجَلُ وجَلًا، فهو وجِلٌ[2]، والوَجَلُ خَوْفٌ معَ فزَعٍ، فيكونُ لاستِعظامِ المَوجولِ منه، والأمرُ من وجِلَ: ايجَلْ، صارتِ الواوُ ياءً لكسرة ما قبلَها، وتقول: إنّي منهُ لأَوْجَلُ، ولا يُقالُ في المُؤنَّث: وجلاءُ، ولكنْ: وجِلةٌ[3]، والمُراد بالوَجَلِ في الآية: الخوفُ مع الاضطرابِ الشَّديد، والإحساسِ بالتّقصير[4].

3) ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: (سرع) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ البُطْءِ، فالسَّريعُ: خِلافُ البَطيء[5]، ويُستعمل في الأجسام والأفعال، يُقال: سَرُعَ، فهو سَريعٌ، وأسْرَعَ فهو مُسْرِعٌ، وأسْرَعوا: صارت إبلُهم سِراعاً[6]، ويُقال: أسرعَ إلى كَذا وكَذا؛ يُريدونَ أسرَعَ المُضيَّ إليه، وسارَعَ بمعنى أسرعَ؛ يُقالُ ذلكَ للواحدِ، وللجميع: سارَعوا[7]، والمُسارَعَةُ: التَّعْجيلُ، والمُراد بـ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ في الآية: المضيُّ بسُرعةٍ في عملِ الخير معَ التنافس على أعمالِ الطّاعة والإحسان، وهو كنايةٌ على الحرص على عملِ الخير وعدم فواته.

4) ﴿سَٰبِقُونَ﴾: (سبق) أصْلٌ يدُلُّ على التَّقْديم، يُقالُ سَبَقَ يَسْبِقُ سَبْقًا[8]، والسَّبْقُ: القُدْمةُ في الجَرْيِ وفي كُلِّ شَيءٍ؛ تَقولُ: لَهُ في كُلِّ أمْرٍ سُبْقةٌ وسابِقةٌ وسَبْقٌ، والجَمْعُ: الأسْباق والسَّوابِقُ[9]، ويُستعارُ السَّبْقُ لإحراز الفَضْلِ والتَّبريز، وعلى ذلك: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: 10]؛ أيْ: المُتقدِّمون إلى ثواب اللّه وجنَّته بالأعمال الصّالحة[10]، والمفادُ من السَّبْقِ في الآية: التَّمثيلُ للتَّنافُسِ والتَّفاوُتِ في الإكثارِ مِنَ الخَيراتِ[11].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 252.
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وجل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وجل).
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5087.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سرع).
(6) الرّاغب، المُفردات: (سرع).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سرع).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبق).
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(10) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سبق).
(11) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 78.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المؤمنون في وجَلٍ من لقاءِ ربِّهم مع ما يُعطَوْن من حَسَناتٍ

يُخبر الحقُّ تعالى عن صفة المُؤمنين الرّابعة، وهي: إيتاءُ المال صدقةً وعَطاءً، والحالُ أنَّ قُلوبَهم خائفةٌ مِن رُجوعِهم إلى ربِّهم، وبَعْثِهم يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ، فيَخافونَ ألّا يُتقبَّلَ منهم[1]، يقول الله تعالى: أولئكَ الموصوفونَ بما سبقَ تفصيله من الأوصاف الجليلة يُبادرونَ بنيل الخيرات الدنيويَّة والأُخرويَّة؛ تَقرُّبًا إلى اللهِ تعالى، ونَيل الدَّرَجاتِ، وهم لأجلها سابقونَ النّاس إلى الثَّواب، لا أولئك الَّذين أمدَدْناهم بالمال والبنين فظنّوا غيرَ الحقِّ أنَّ ذلك إكرامٌ منّا لهم، فإنَّ إعطاءَ المال والبنين والإمدادَ بهما لا يُؤهِّلُ للمُسارعة إلى الخيرات، وإنَّما الّذي يؤهِّل للخيرات هو خشيةُ اللهِ وعدمُ الإشراك به وعدمُ الرّياء في العمل والتّصديقُ باللهِ معَ الخوفِ منه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الجمعُ بين أعمالِ القلوبِ والجوارحِ سرُّ كمالِ الإيمان

(الواو) في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾ عاطفةٌ جملةَ الموصولِ على الموصولاتِ قبلَها، دالّةٌ على تشريك هؤلاء الممدوحينَ بهذا الإخبار بين كلِّ مضامين هذه الجُمل، وما حملَتْه من أوصاف، وأفاد العطف الجمعَ بين أعمالِ القلوب وأعمالِ الجوارح؛ لأنَّ القلب إنَّ تحقّقَ إيمانه وتصديقُه، وثبتت خشيته للّه؛ فإنّه يتقرّب إليه تعالى بأعمال الطّاعات، ومن أجَلِّها الإنفاق، فيكون جامعُ العطف خياليًّا بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ لتقارُنِها في الخيال وتلازُمِها فيه.

نكتةُ تكرارِ الاسمِ الموصولِ:

انفرادُ الصِّفاتِ بالعنايةِ والاهتمامِ برهانُ المكانةِ والجلالِ

الموصولُ في الآية هو الموصول الرّابعُ تتاليًا معَ ما سبقَه، ونسقًا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 66، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 480، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 33، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 554.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 72، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 34، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 554، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 1305.

عليه، بدءًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 56 - 60]، ولم يكتفِ النَّظمُ بـ(الموصول الأوّل) بحيثُ يُعطَف عليه ما بعدَه، فلم يَقُل: (وبآياتِ ربِّهم يُؤمنون، وبربِّهم لا يشركون، ويُؤتون ما آتوا وقلوبُهم وجِلة)، وذلك ليستقلَّ كلُّ واحد من الموصولات بصلتِه، فتكون كلُّ واحدةٍ من الجُمل الموصولةِ محلَّ اهتمامٍ ومدحٍ بصفةٍ مستقلَّةٍ، وليس فقط بضميمتِها وتبعيّتها لما قبلَها؛ فيكون "المقصودُ الفريقَ الذين اتَّصفوا بصلةٍ من هذه الصِّلات"[1]، وللإيذانِ باستقلال كلِّ واحدةٍ من تلك الصِّفات بفضيلةٍ باهرةٍ على حيالها، وتنزيلًا لاستقلالها منزلةَ استقلالِ الموصوف بها[2]؛ فالعطفُ بترك الموصول يُعطي للجملةِ الأولى فقط صفةَ المركزيَّة والهيمنةِ على غيرها من المعطوفات، وتكونُ بقيّةُ المعطوفات تابعةً لها على أنَّها صفاتٌ أقلُّ شأنًا وأضعفُ أثرًا، فأعاد النَّظمُ الموصولاتِ وكرَّرها تلميحًا إلى أنَّ كلّ موصولٍ وصلته بما اشتمل عليه من وصفٍ له دورٌ أساسٌ ومركزيٌّ في هذا المدح للمؤمنين، وأنَّ كلَّ صفةٍ اتَّصفوا بها لها تميُّزُها الدّالُّ على شدَّة الإيمان وكماله.

براعةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُؤْتُونَ﴾:

فضلُ الأعمالِ في استمرارِها وإن قلَّتْ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمضارعِ ﴿يُؤْتُونَ﴾ مع ذِكر أنَّهم آتوه، لبيان أنَّ المُسارِعين إلى الخيراتِ لا يكتفونَ بمسارعةٍ واحدة، وإلّا ما كانوا أهلًا للمدح بهذه الصّيغة ﴿يُؤْتُونَ﴾ الدّالّة على أنَّ هذا الإيتاء يتكرَّر منهم، ويستمرُّ ويتجدّدُ كلَّما تجدَّدتْ مظانُّه، ووُجِدت محالُّه، فتراهم يَبذلون صدقاتِهم ويَنثرونها في أهلها المُحتاجين،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 77.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 140.

ولا يَكتفون بالمفروض منها؛ بل يَزيدون عليه تنفُّلًا وقُرْبًا رِضًا من أنفسِهم، وشكرًا لمَن أنعمَ عليهم.

نكتةُ استعمالِ مادّةِ (الإيتاء):

إذا طابتِ النُّفوسُ تسامحَتْ في الإنفاقِ وتسارعَتْ في البذلِ والعطاءِ

اختارَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿يُؤْتُونَ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ المُتصدِّقين يبذلونَ ما يَبذلون، ويُنفقون ما يُنفقون عن رضًا وسماحةِ نفسٍ وطيْبِ خاطر، وليس قَهرًا أوْ جَبرًا، فمادّة الإتيان فيها معنى: السّهولة في الإنجاز[1]، وجرت عادةُ القرآن الكريم على ربطِ دفعِ الصَّدقات وبذلِها بلفظ الإتيان، تنبيهًا على أنَّ بذلَها لا يكون إلّا بهذا الطَّريق السَّهل السّمح الّذي يتغلَّب فيه المُكلَّف على شُحِّ النّفس المفطورة على حبِّ المال أشدَّ الحبّ وأبلغَه، كما قال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: 20] حتّى يستحقَّ المرءُ بأنْ يكونَ مِن أولئك الَّذين مدحَهم الله بأنَّهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

نوع ﴿مَآ﴾ ودلالتُها:

(ما) موصولةٌ دالّةٌ على العمومِ المُستغرقِ لكلِّ نفقةٍ

﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَواْ﴾ اسمٌ موصول مُبهمٌ، وعُبِّر بها دون (الذي) لدلالتها على العمومِ والإبهام، فيُقصَد بها إلى جمع المُراداتِ الكثيرة بأخصر لفظٍ؛ فهي أجمعُ من غيرها وأخصر، والمُراد أنّهم وجِلون خائفونَ من التّقصير في كلِّ عملٍ صالحٍ يعملونه، وكلِّ نفقةٍ يُنفقونها فريضةً كانت أوْ تطوُّعًا، قليلةً كانتْ أوْ كثيرةً، حَذِرون من عدمِ قبولِها، كما أفاد الإبهام في ﴿مَآ﴾ أنَّ النّفقة لا يُشترط فيها أن تكونَ عظيمة المقدار، فقد تصدرُ عن فقيرٍ لكنَّها في الميزان عظيمةٌ، ولذا نكّرها وأبهمها لتشمل القليلةَ أيضًا؛ لأنَّ صاحبَها لا يملكُ فاضلًا عن حاجته إلّا إيّاها، فكأنّ المُرادَ: (يُؤتون أيَّ شيءٍ).

(1) الرّاغب، المُفردات: (أتى).

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي الواقعِ في حيِّزِ المضارعِ:

الدّلالةُ على الاستغراقِ الزّمنيّ للإنفاقِ وعملِ الخيرِ

التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿ءَاتَواْ﴾ للدّلالةِ على التّحقُّق والقطعِ بالوقوع؛ أيْ: ما بذلوه وأنفقوه من الصَّدقات بالفعل المُتحقِّق والمُنجَز، فهم قومٌ يعملون غير مُكتفين بالقول، فيكونُ قولُهم أمانيَّ لا مصاديقَ لها، وفي الجمعِ بينَ الفعل المضارع ﴿يُؤْتُونَ﴾ المُتسلِّط على الموصول، والفعل الماضي ﴿ءَاتَواْ﴾ الواقعِ صلةً دلالةٌ لطيفةٌ على أنَّهم حال إعطائهم الصّدقةَ في الماضي كانوا مُستمرّين عليها، فلم يكنِ الماضي قد صدرَ مرّةً واحدةً؛ بل هو ماضٍ مُستمرٌّ، وما استمرَّ في الماضي لعِلَّة فإنّه مستمرٌّ في الحاضر والمستقبل؛ فأفاد هذا الجمع بين الزَّمنيْن أنَّ إيتاءهم الصَّدقات مُستغرقٌ جميعَ أزمنةِ وجودهم.

بلاغةُ الكنايةِ ﴿مَآ ءَاتَواْ﴾:

كلُّ ما تجودُ به النَّفسُ مرضاةً لله تعالى صدقةٌ عظيمةٌ

جاء التَّعبير بقوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَواْ﴾ كنايةً عن (الصّدقات)، دون أن يقولَ: (والذين يؤتون صدقاتهم) أوْ (نفقاتهم)؛ ليعمَّ كلَّ أصناف العطاء المطلوب شرعًا، وليعمَّ القليلَ منه والكثير، ولو ذَكَرَ (الصّدقات)؛ لظُنَّ أنَّ المقصودَ هي الصَّدقاتُ الواجبة، والمُرادُ عمومُ الصَّدقات الواجبةِ والتطوعيَّة؛ فالكلام عن البَذْل والإنفاق من حيث هو على شرط سماحة النَّفس ومحبَّة الإيتاء، دون نظرٍ إلى قَدْره أوْ نوعه أوْ حُكْمه.

بلاغةُ جملةِ الحالِ:

وَجَلُ القلوبِ كمالُ إيمانٍ وثمرةُ إحسانٍ

معنى قوله تعالى: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أيْ: خائفون أشدَّ الخوف، وقد ولَجَ الخوفُ في دواخل قلوبهم وجالَ في كلِّ جزءٍ منها؛ لأنَّهم عالمون بأنَّهم لا يَقدرون الله حقَّ قدرِه وإنِ اجتهدوا[1]، وجملةُ الحال ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ جاءتْ بعدَ جُمَلٍ مُتعاطفةٍ، فحقُّها أنْ تعودَ إلى جميع الجُمَل الّتي قبلها، وجملةُ الحال تفيدُ تقييدَ مضمون ما

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 160.

قبلها، فهم عندما يفعلونَ تلك الأفعال لا يشعرونَ بالرّاحة والرِّضا عندما يُفكّرونَ ويستشعرونَ صعوبةَ الحساب؛ أيْ: يفعلون ما ذُكر من الأعمال الصّالحة بقلوبهم وجوارحهم، وهم مضمرونَ وجَلًا وخوفًا من ربِّهم أنْ يَرجعوا إليه فلا يجدونَه راضيًا عنهم، أوْ لا يجدونَ ما يجِدُه غيرُهم ممَّن يسبقُهم في الصّالحات، فهم لذلك ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ويُكثرون منها ما استطاعوا، وكذلك كان شأنُ المسلمين الأوَّلين[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميّة:

عـراقـةُ الـخـوفِ من اللهِ ولقائِه نـمـوذجٌ إيـمـانيٌّ رفيعٌ

دلَّت الجملةُ الاسميّة ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ على تحقُّق هذا الوصف في المُنْفِقين، وأنَّه سجيَّةٌ وطَبْعٌ ومَلَكَةٌ ثابتةٌ راسخةٌ قد تمكَّنت في نفوسهم، وهذا أبلغ من التَّعبير بالفعليّة، فلم يَقُلْ: (ووجِلتْ قلوبُهم)؛ لأنَّ الجملة الاسميّة تفيدُ الثُّبوت والدّوام، فهم أثناءَ تقديمِ أعمالِ الطّاعات القلبيَّة والجسميَّة خائفونَ من عدم القبول، مُشفِقونَ من هَوْل الحساب وصعوبته، ومن ثَمَّ يَنشطون دائمًا في أعمال الخيرات مُسارعين.

غرضُ اختيارِ مُفرَدَة القلوبِ:

ذكرُ القلبِ مدحٌ وثـنـاءٌ وتـذكـيرٌ وتحذيرٌ

جاء استعمالُ مُفرَدَة القلوبِ في قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ المأخوذ من التقلُّب، دون لفظ (الفؤاد)، وذلك لبيانِ أنَّهم وإن أنفقوا فإنَّ القلوب معرَّضةٌ للتقلُّب، ولا يأمنُ مكرَ الله أحدٌ، فهم يخشَون ذهابَ الأجر والثَّواب إنْ زُحزحت قلوبهم عن الطّريق وشعروا بالعُجْب والغرور مع طاعاتهم، ففي التَّعبير بالقلب مدحٌ لهم على الثّبات، وإبرازٌ لمنّة الله عليهم في تثبيتهم، وتحذيرٌ وتذكيرٌ بأنَّ هذه القلوبَ بيد الله تعالى، وقد "كان رسول الله ﷺ يكثرُ أنْ يقول: "يا مُقلِّب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينِك"، فقلتُ: يا رسول الله،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 77.

آمنّا بك وبما جئتَ به، فهل تخافُ علينا؟ قال: نعم، إنَّ القلوبَ بين أُصْبُعَيْنِ من أصابعِ اللّه يُقلِّبُها كيف يشاءُ"[1].

نكتةُ إسنادِ الوجَلِ إلى القلوبِ:

وجـــلُ الـقـلـبِ يستلزمُ وجَـلَ البدنِ كلِّه

أُسنِدَ الوجَلُ إلى القُلوبِ إسنادًا حقيقيًّا؛ لأنَّ القَلْبَ يَكثُرُ إطلاقُهُ في كلامِ العَرَبِ على إحساسِ الإنسانِ وقَرارَةِ إدراكِه، وليسَ المُرادُ به هذا العُضْوَ الصَّنوبريَّ الّذي يُرسِلُ الدَّمَ إلى الشَّرايين[2]، وفي إسنادِ الخوفِ والاضطرابِ الشَّديدِ إلى القلوبِ دلالةٌ على أنَّهم بجميعِ أبدانِهم ينتابهم فزعٌ عندما يُؤتون ويستذكرون لقاء اللّه، لكن ذُكِر القلب وهو محلُّ الإدراك باعتبار أنَّه إنْ شعر بالخوف والقلق فإنَّ البدن كلَّه يرضخُ له وينقادُ، ويُحسُّ بقشعريرة تنثالُ إلى أطرافه وأجزاءِ جسمِه الأخرى، فيكون في ذِكْر (القلوب) وحدَها مجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه الجزئيّةُ.

دلالةُ اختيارِ مُفرَدَة ﴿وَجِلَةٌ﴾:

الـوَجَـلُ يجمعُ إلى فزعِ الخوفِ رجاءَ القبولِ

آثر النَّظمُ استعمالَ مُفرَدَة ﴿وَجِلَةٌ﴾ دون (خائفة)؛ لأنَّ التَّعبير بالوجَل أدلُّ على حال المُنفقينَ في سبيل اللّه وأنسبُ لمقامهم من التَّعبير بـ(الخوف)؛ فالوجَلُ أخصُّ من الخوف من حيث إنَّه خوفٌ يُمازجُه طمَعٌ وفزَعٌ؛ أيْ: والحال أنَّ قلوبهم بين خوفِ الرَّدِّ وفزَعِه ورجاءِ القبولِ وطمَعِه[3].

حذفُ حرفِ التّعليلِ:

بيانُ علَّةِ الوجَلِ مـــع صـــلاحِ العملِ

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾، مجرورٌ بحرفِ تعليلٍ محذوفٍ، فهو مصدرٌ مُؤوّلٌ تقديره: (لرجوعهم إلى اللّه)، وحذفُ حرفِ الجرِّ مُطّردٌ مع (أنّ)، والغرضُ من التّعليل بيانُ سرِّ الخوف

(1) سُنن التّرمذيّ، كتاب أبواب القدر، الحديث رقم: (2140).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 256.
(3) محيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 170.

الّذي ينتابهم، والفزعِ الّذي يُقلقهم، والطّمع الّذي يدفعُهم للرّجاء، وهذا التّعليل مناطُ المدحِ لهم والإكرامِ لمقامِهم السّامي.

غرضُ التّوكيدِ:

التّوكيدُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ دالٌّ على الاهتمام واليقينِ بالحُكم، حيثُ لا يوجَد شاكٌّ ولا شكٌّ في الرّجوع إليه تعالى عندهم، فينصرف التّوكيد إلى الاهتمام وتيقُّن الرجوعِ بسبب وجَلِهم، وهو رجوعهم إلى ربِّهم بأعمالٍ يخشَون عدمَ قبولها مع الرَّجاء والطَّمع فيه، فمقتضى الإنفاقِ الثَّقةُ بالجزاءِ الأحسن، والوَجَلُ مع الثِّقة يحتاجُ إلى نوعِ توكيدٍ يورِّث الأهميَّة بمثل هذا المقام، ويُفيد وصولَهم درجةَ اليقين بلقاء اللّه تعالى حتّى خافوا ورهِبوا اللِّقاء.

الثِّقةُ بالجزاءِ مع ذِكْر الوَجَلِ يحتاجُ إلى توكيدٍ يُبيِّن أهميَّةَ الخشيةِ

نكتةُ الإضمارِ في: ﴿أَنَّهُمْ﴾:

عبَّر السّياق الحكيم بضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ليكون جامعًا للموصولات الأربعة؛ فكأنَّهم طائفةٌ واحدةٌ مُتّصفةٌ بما ذُكِر في حيِّز صلاتها من الأوصاف الأربعة[1]، فالضَّمير ليس عائدًا إلى الذَّوات المُعبَّر عنها بالموصول فقط؛ بل راجعٌ إليها بقيد صِلاتها المُتضمِّنة تلك الأوصاف الجليلة، والجمعُ بينها بضميرٍ واحدٍ يدلُّ على أنّهم مع تكثُّرهم بمنزلة طائفةٍ واحدةٍ لا تكثُّر فيها حقيقةً.

توحُّد الضَّمير وتعدُّد المرجع يجعل المُتعدِّد واحدًا

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ على الخبر ﴿رَٰجِعُونَ﴾؛ لإفادة الاهتمام والاختصاص، فسببُ وجَلِهم هو كون هذا الرّجوع إلى ربّهم لا إلى غيره، الّذي يخجَلون من تقصيرهم في حقِّه بما قدَّموه من أعمالٍ على صلاحِ وصفِها وكمالها، وليس أنَّهم وجِلون من الرُّجوعِ نفسِه، فهم مُؤمنون بالبعث والحساب، ففيه إشارةٌ إلى أنَّهم دائمو

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ لإفادةِ الاهتمامِ والاختصاصِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 140.

التَّفكير في الرّجوع إلى اللّه تعالى، ومن هذا الرّجوعِ المُنحصِرِ باللّه تعالى يتحصَّل الوجلُ الشَّديد.

دلالةُ استعمالِ حرفِ انتهاءِ الغايةِ:

الـرّجـوعُ إلى اللهِ حضورٌ في المحشَرِ للجزاءِ

استعمالُ حرفِ انتهاء الغاية ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يُشير إلى البدايةِ، وهو الإيمان باللّه تعالى، فإنَّ مُقتضى الإيمان باللّه ابتداءً الإيمانُ بالرُّجوع إليه انتهاءً، والرُّجوعُ إلى اللّه تعالى معناه الحضورُ في المَحْشَر للحِسابِ والجزاء، وإنّما سُمّي الحضور للمحشر رجوعًا إلى اللّه تعالى؛ لأنّه مالكُ يومِ الدّين المُتصرِّف فيه، المُحاسبُ لعباده على أعمالهم.

بلاغةُ اختيارِ عنوانِ الربوبيّةِ:

إحـسـانُ الـظَّـنِّ بـالـرزّاقِ يـسـتـوجـبُ الإنـفـاقَ وتـركَ الاضطرابِ

إيثارُ التَّعبيرِ باسم الربِّ دون الاسم الجليل (اللّه) فيه دلالةٌ على الرّجاء الّذي يملأ قلوبَهم رغمَ ما بها من خوفٍ وفزعٍ واضطراب، وفيه مدحٌ لهم وثناءٌ عليهم؛ لأنهم مُعترفونَ بإحسان ربِّهم إليهم وإنعامه عليهم؛ فإنَّ إنفاقهم هو إيمانٌ بأنَّ ما يُنفقونه هو رزقُ اللّه لهم، وأنَّه سيرزقُهم في المستقبلِ كما رزقَهم في الماضي، وفيه تعريضٌ بغيرهم من المُشركين الَّذين قابلوا إحسانَ ربِّهم إليهم بالكفر والنكران، كما أنَّ في العدول إلى (الربّ) دلالةً على ما يتلاءم مع حالة الخوف؛ لأنَّ فيه معانيَ العظمة والقوَّة والسّيادة والتّصرُّف المُطلق، وبذلك يتناسب لفظ (الرَّبّ) مع حالتي الرَّجاء والخوف معًا.

نكتةُ إضافةِ لفظِ الرَّبوبيّة إلى الضَّميرِ:

التَّشريفُ والتَّخصيصُ دليلُ الاعتقادِ الحقِّ

أُضيف وصفُ الرّبِّ إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ تشريفًا لهم، ورفعةً لمقامهم؛ فهو ربُّهم الّذي رزقهم وأعطاهم وأمدَّهم بالعطاءِ الجزيل، والمَدَد الوفير، كما تُفيدُ الإضافةُ التَّخصيصَ بأنَّ ربَّهم هو الحقُّ، وأمّا بقيَّة الأربابِ الّتي يدّعيها العابدون أربابًا مُختَرعةً فمحضُ افتراءٍ وكذبٍ.

براعةُ استعمالِ مُفرَدَة ﴿رَٰجِعُونَ﴾:

الرُّجوعُ إلى اللهِ تعالى هيئةٌ نفسيَّةٌ واستعدادٌ روحيٌّ واعتقادٌ راسخٌ

في استخدام مُفرَدَة ﴿رَٰجِعُونَ﴾ ردٌّ على مَن يُنكرون البعث استعظامًا له، وينسَون أنَّ الّذي يُعيدهم ويَبعثُهم هو الّذي خلقَهم أوّل مرّةٍ، فالرّجوعُ هو العَوْدُ إلى مكانٍ كان منه البَدْء[1]، فهم راجعونَ إلى مَن بدأ خلْقَهم وإلى المكانِ الّذي كان أبوهم فيه، بما يدلُّ على أنَّ استعظام أمرِ البعث ليس في محلِّه، فلو حاكموا أنفسَهم إلى مُقتضياتِ العقلِ السَّديد والبرهانِ الواضح علِموا أنّهم مُخطئون؛ لأنَّ وجودهم هو أكبرُ دليلٍ على قدرة مَن أوجدهم، وعلى قدرته على إعادتِهم وإرجاعِهم إليه، وهذا القياس له في القرآن وجودٌ مُتكرّرٌ وبأساليب متنوعة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرّوم: 27] وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء: 51] وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: 78 - 79].

دلالةُ استعمالِ صيغةِ اسمِ الفاعلِ:

رسوخ الإيمان في الفؤاد دليل على الإيمان بالمعاد

عبَّر بصيغة اسم الفاعلِ ﴿رَٰجِعُونَ﴾ للدِّلالةِ على كمالِ إيمانِهم بعقيدةِ حدوثِ البعثِ والرّجوعِ إلى اللهِ، وأنَّ اعتقادَهم هذا لم يُفارقْ قلوبَهم لحظةً؛ لأنَّ (اسم الفاعل) يدلُّ على حدوثِ هذا الرّجوعِ لا محالةَ في وقتٍ مّا، وأنَّهم مؤمنون بهذا الحدوث إيمانًا راسخًا ثابتًا لا يتزلزل، ومن ثَمَّ كانت قلوبُهم عريقةً في الوَجَل من ذلك الرّجوع واللّقاء.

غرضُ الخبرِ وبلاغتُه:

تخصيصُ المؤمنين بالمدحِ والثّناء، والتّعريضُ بالمشركين

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ جملة اسميّة وقعت خبرًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ﴾ [المؤمنون: 57] وهي مسوقة

(1) الرّاغب، المُفردات: (رجع).

لبيانِ مَن له المُسارعة في الخيرات، إثرَ إقناطِ الكفّار عنها وإبطالِ حِسبانهم الكاذب؛ أيْ: أولئك المنعوتونَ بما فُصِّل من النعوت الجليلة خاصّة، دون أولئك الكفرة، يُسارعون في نيل الخيرات الّتي من جملتها الخيراتُ العاجلة الموعودة على الأعمال الصّالحة[1]، فغرضُ الخبر تخصيص المؤمنين بالمدح والثّناء؛ لأنَّ المُسنَد الفعليَّ يُفيد تقويةَ الحُكْم وتخصيصَ المحكوم عليه بما تضمَّنَه الحُكْمُ، كما يُفيد هذا التَّخصيصُ التعريضَ بالمشركين.

بلاغةُ الجملةِ الاسميّةِ:

المؤمنون مُبادِرون إلى فعلِ الخيراتِ وقد يُعجَّل لهم بعضُ الجزاءِ

التَّعبير بالجملة الاسميّة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ﴾؛ للدّلالة على ثبوت هذا الجزاء لهم على سبيل الاستمرار، إنْ حملنا الآية على كونها خبرًا عن جزائهم المُعجَّل، أوْ على ثبوت وصفهم بأنّهم مُبادِرون دومًا ومُسارِعونَ إلى فعل الخيرات على المعنى الآخر المُحتَمل، وعلى كلٍّ فالتَّعبير بالاسميّة يؤكّد ثبوت هذه المسارعة لهم واستمرارها، أيًّا كان معناها.

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشارةُ إلى المُنزَّلِ منزلةَ المحسوسِ يُفيد عِلّيَّة بناءِ الخبرِ

في ابتداءِ الإخبارِ عن الّذين يخشَون ربَّهم باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدّالِّ على البُعد مدحٌ لهم، وثناءٌ عليهم، وإقرارٌ ببُعد منزلتهم في الفضل وفي الخير، وكذلك في الجزاء عليه، كما أفادتِ الإشارة الموضوعة لـ: "أنْ تَعودَ إلَى ذاتٍ مُشاهَدَةٍ مُعَيَّنَةٍ، إلّا أنَّ العَرَبَ قَدْ يَخْرُجونَ بها عَنِ الأصْلِ، فتَعودُ إلَى ذاتٍ مُسْتَحْضَرَةٍ مِنَ الكَلامِ بَعْدَ أنْ يُذْكَرَ مِنْ صِفاتِها وأحْوالِها ما يُنْزِلُها مَنْزِلَةَ الحاضِرِ في ذِهْنِ المُتَكَلِّمِ والسّامِعِ، فإنَّ السّامِعَ إذا وعَى تِلْكَ الصِّفاتِ وكانَتْ مُهِمَّةً أوْ غَرِيبَةً في خَيْرٍ أوْ ضِدِّهِ صارَ المَوْصوفُ بِها كالمَشاهِدِ، فالمُتَكَلِّمُ يَبْني

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 245.

عَلَى ذَلِكَ فيُشيرُ إلَيْهِ كالحاضِرِ المُشاهَدِ، فيُؤْتَى بِتِلْكَ الإشارَةِ إلَى أنَّهُ لا أوْضَحَ في تَشَخُّصِهِ، ولا أغْنَى في مُشاهَدَتِهِ مِنْ تَعَرُّفِ تِلْكَ الصِّفاتِ، فتَكْفي الإشارَةُ إلَيْها"[1]، وبناءُ الأحكام على اسم الإشارة يفيدُ أنَّ تلك الأحكام المبنيّة بسبب تلك الصّفات الّتي أُشير إليها، فهم يُسارعون في الخيرات لأنَّهم اتّصفوا بتلك الصّفات، وأنَّ تلك الصّفات أهّلتهم لكي يكونوا مُسارعينَ في الخيرات.

نكتةُ مجيء المُسنَد فعلًا مضارعًا:

المؤمنون الصّادقون يَنشَطون دائمًا لفعل الخيرات

جاء المُسنَد فعلًا مضارعًا ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ إشعارًا باستمرار مسارعتهم إلى فعل الخيرات، وأنَّ عزائمهم لا تفترُ عن فعلها، وإن فترَت بعضَ الوقت، فسريعًا ما ينشَطون لها من جديد، وإن فُهم من الصّيغة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ معنى المشاركة، وهو أحد معنَييها، فهي للمبالغة في معناها؛ "لأنَّهم إذا سورِع بما لهم فقد سارعوا في نيلها"[2].

سرُّ استعمالِ المسارعةِ دون المسابقةِ:

المؤمنون وحدَهم يُسارعون في عمل الخير ولا يُنافسُهم فيه أحدٌ

تدلُّ المسارعة على مرحلة سعيٍ لبلوغ الهدف بأسرع وقتٍ، فالمسارعةُ تتقدّمُ السّبقَ والمسابقةَ وتكون آلةً لتحصيلهما، فالمسارعة جريٌ سريعٌ يؤول إلى المسابقة والسّبق، فيكون ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ بمعنى: يُسرعون سرعةً شديدةً، وصيغةُ المشاركة لمجرَّد المبالغة، أوْ أنَّها تُفيد المُشاركة؛ لأن المؤمنين في حالة تنافس من أجل عمل الخيرات وتحصيلها؛ في حين أنّ المسابقة لازمةٌ للمسارعة وتقتضي الوصول إلى الهدف وإحرازَه مع مشاركةِ طرفٍ آخر في مضمار التّنافس والسّباق والوصول إلى الهدف، فلو عبّر بـ (يسابقون) لدلَّ على أنَّهم يُسابقون غيرهم دون إشارةٍ إلى أنّ السَّبق بسرعةٍ وجريٍ قويٍّ، فكان التَّعبير بالمسارعة، للدّلالة على أنَّهم يُسارعون في عمل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 241.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 192، ومحيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 171.

الخير ويُبادرون إليه، وهذا يوصلُهم بدوره إلى السَّبق والمنافسة وإحرازِ الهدف.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ المسارعةِ:

لفظ المسارعةِ مُستعارٌ لتوخّي المَرغوبِ والحِرصِ على الفعل، وصَرْفِ الهمَّةِ والجِدِّ للخَيْراتِ؛ أيْ: لفعلِها، تَشبيهًا للمُداوَمَةِ والاهتِمامِ بمسارعةِ السّائِرِ إلى المكانِ المقصودِ الجادِّ في مَسالكِه[1]، ففي الفعلِ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

جاء التَّعبير بالحرف الموضوع للظَّرفية في قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾، وآثرَه على حرف انتهاء الغاية ﴿إِلَىٰ﴾ [آل عمران: 133]، المستعمل مع الفعل نفسِه في قوله تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: 133]؛ "للإيذان بأنَّهم مُتقلِّبون في فنون الخيرات، لا أنَّهم خارجون عنها مُتوجِّهون إليها بطريق المُسارعة"[2]، فهم بالفعل مُنغمِسون في فعل الخيرات؛ بل مسارعون في هذا الفعل، ولتضمين ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ معنى (يرغبون)، أوْ أنَّه كنايةٌ عن الرّغبة[3]، وانظر إلى التناسب في ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ﴾ [آل عمران: 133] و﴿يُسَٰرِعُونَ فِي﴾؛ فإنَّ الأمر بالمسارعة يدلُّ على أنّهم يُطلب منهم الذهاب إلى الخيرات، بمعنى أنّهم لم يتوجَّهوا إليها أصلاً فأمروا بذلك، في حين أنّ المُتحدَّث عنهم هنا قد مضَوا مسبقًا في الخيرات ودأبوا عليها، فجاء الوصف لهم بأنَّهم مُسارعون فيها لا إليها.

بيانُ الانغماسِ في فعلِ الخيراتِ وتضمين المسارعةِ معنى الرغبةِ

معنى التَّعريف الجمعيّ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾:

التَّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ مجموعًا مُعرَّفًا يدلُّ على أنَّ المقصودَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 136.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 140.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 336.

عمومُ معنى الخيرات، فهم يسارعون في كلّ مجالٍ من مجالات الخير سواء تعلق بالمعتقدات أوْ بالأقوال أوْ بالأفعال، وهو ما يدلُّ على أنَّ تنويع أفعال الخيرِ أحبُّ إلى الله تعالى من الاقتصارِ على بعضها.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَة الخيراتِ دون الصّالحاتِ:

لـفـظُ الـخـير أوسعُ دلالةً من لفظِ الصَّلاحِ

استعمال مُفرَدَة ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أوسعُ دلالةً من مُفرَدَة (الصّالحات)، فقد تُعورف على أنَّ الصَّلاح مرتبطٌ بالأعمال، فيُقال: عملٌ صالحٌ، وفي الكتاب العزيز يتكرَّر كثيرًا: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، أمّا الخير فهو أوسعُ من ذلك؛ فيدخل فيه المعتقدات والأعمال والأقوال والعلوم النافعة؛ فقد يكون الخير رأيًا حكيمًا، أو مشورةً سديدةً، ويشمل من باب أوْلى الأعمال الصّالحة، والطّاعات بأنواعها، فالخير: ما يرغب فيه الكلّ[1]، ولا ننسى أن مرجعَ اسم الإشارة الصّفاتُ السّابقة، وهي تجمعُ صنوفًا من الخير تتعلّق بالاعتقاد الحقّ والعمل الصّالح والقول الطيِّب، فناسبتها لفظةُ الخير الشّاملةُ لكلِّ ذلك.

بلاغةُ المُقابلة:

المسارعةُ في الخيرات مفهومٌ قرآنيٌّ يُقصد به الفوز بجنّات النَّعيم

لمّا قال ﷻ قبل هذه الآية عن غير المؤمنين: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: 55 - 56] فنفى نفيًا ضمنيًّا مستفادًا من الاستفهام الإنكاريّ الداخل عَلَى فعل الحسبان[2]، أنْ يكون ما يقعُ لهم وينالُهم من نعيم الدُّنيا أنَّه من رضا الله عليهم، ومن مسارعته في منحِهم الخيرات، ناسبَ هنا أن ينصَّ على أنَّ الذين ينالون الخيراتِ ويُسارعون فيها هم المؤمنون الصّادقون، وجزاؤهم أنْ يُسارع الله تعالى لهم في الخيرات؛ وعليه فبين هذه الآية والتي سبقَتْها في

(1) الرّاغب، المُفردات: (خيّر).

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 194.

نفي الخيرات عن الكفّار (طباقٌ معنويٌّ)؛ لأنَّ فيه إثبات ما نُفي عن الكفّار للمؤمنين[1].

نوع الواو ودلالتها:

عـطـفُ الـلّازم عـلـى المـلـزوم تحصيل النتيجة بـعـد الأخـذ بالمُقدّمات

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ عاطفةٌ على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ لقصد التّشريك والجمع بينهما، وتأكيد نوال بلوغ الغاية، وهما جملتان متفقتان خبرًا، فيجمعُ بينهما بالعطف، والعطف فيه من عطف اللّازم على الملزوم؛ إذ يلزم من المُسارعة في الخيرات أنْ يكونوا سابقينَ مَن عداهم، وفائزين وفالحين في مضمار السِّباق.

بلاغةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ بعد الفعليّة:

السَّبقُ للخيراتِ سجيّةُ المؤمنين وحَـمـيَّـةُ الصّادقين

جاء التّعبير بالجملةِ الاسميّة ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ مدحًا للمؤمنين وثناءً عليهم، وتأكيدًا بأنّ سبقهم غيرَهم إلى الطّاعات ونيلِها هو سجيَّةٌ فيهم، وخُلقٌ ثابت ثباتَ الطّبع لا يتخلَّف عنهم، ومجيئُها بعد جملة ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تقريرٌ لها تقريرَ النّتيجة لما يَستلزمُها، ولتُفيد الثبوتَ بعدما أفادتِ الأولى التجدُّدَ[2]، ولمّا كانت عملية المسارعة بحثًا عن الخيرات وتحصيلًا لها عبّر بالجملة الفعليّة، ولمّا كان السَّبق والوصول إلى تلك الطّاعات ونيلُها وإحرازُها أمرًا لازمًا لتلك المسارعة وذلك الجري عبّر بالجملة الاسميّة.

نوعُ اللّامِ ومعناها:

الـلّامُ محمولةٌ على التَّقوية أوِ التّعليل

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ لتقوية العمل؛ لأنَّ اسم الفاعل ﴿سَٰبِقُونَ﴾ متعدٍّ بنفسه، فهم سابقون إياها؛ أيْ: ينالونها قبل الآخرة، وهذا مبنيٌّ على أنَّ المُراد بالخيرات الجزاءُ الحسنُ الّذي ينالونه مُعجَّلًا في الدُّنيا، وإذا فسَّرنا ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ بالطّاعات؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 192، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 570.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 570، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 19/ 90.

أيْ: فيكون معنى ﴿سَٰبِقُونَ﴾ راغبون في الطّاعات أشدَّ الرغبة، وهم لأجلها سابقونَ فاعلون السَّبق، فتكون اللّام للتّعليل، أو ﴿سَٰبِقُونَ﴾ النّاس لأجلها[1].

مجازيةُ التَّعبيرِ بـ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾:

الاستعارةُ التمثيليةُ أو المجازُ المُرسلُ لبيان كمال المدح

مدحُ المؤمنين بأنَّهم يُسارعون في أعمال الطّاعات ولا يتأخَّرون عنها، استلزمَ تمثيلَ حالهم بهيئةِ المُتسابق للوصول إلى غايته، فكما أنَّ المتسابق يرغبُ حالة السِّباق والتّنافس بالوصول متقدِّما قبل غيره إلى الهدف المنشود؛ فإنَّ المؤمنين يتنافسون من أجل تحصيلِ أكبرِ قدرٍ مُمكنٍ من الطّاعات، أوْ أنَّ ﴿سَٰبِقُونَ﴾ وحدها بمعنى: محرزون تسميةً للملزوم باسم لازمه ومآله؛ إذ يؤول السّبق إلى الإحراز فيكون مجازًا مُرسلًا، وعلى هذيْن التّوجيهيْن فإن اللّام بمعنى (إلى) وهذا التّوجيه الجدير بالقبول ما مال إليه ابن عاشور بقوله: "أنَّهُمْ يَتَنافَسونَ في الإكْثارِ مِنْ أعْمالِ الخَيْرِ، فالسَّبْقُ تَمْثيلٌ لِلتَّنافُسِ والتَّفاوُتِ في الإكْثارِ مِنَ الخَيْراتِ بِحالِ السّابق إلَى الغايَةِ، أوِ المَغْنَى وهُمْ مُحْرِزونَ لِما حَرَصوا عليهِمْ، فالسَّبْقُ مُجازٌ لِإحْرازِ المَطْلوبِ لِأنَّ الإحْرازَ مِنْ لَوازِمِ السَّبْقِ، وعَلَى التَّقْديرَيْنِ فاللّام بِمَعْنَى (إلَى)، وقَدْ قيلَ إنَّ فِعْلَ السَّبْقِ يَتَعَدَّى بِاللّام كَما يَتَعَدَّى بـ(إلَى)"[2].

غرضُ تقديمِ ﴿لَهَا﴾ على الخبر:

قصرُ همِّهم وسائر شؤونهم على عملِ الخيرات

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ على الخبر ﴿سَٰبِقُونَ﴾؛ لإفادة الحصر والاختصاص، لكونهم لا يُسارعون إلّا في الخيرات، وهو من قصر الموصوف على الصّفة، وكأنّ نظرَهم وحياتَهم قد سخّروهما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 140، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 284، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 570.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 78.

في طلب الخير وتحصيله، فلا شغلَ لهم عنها؛ بل همُّهم التّنافسُ والمسابقة من أجل الخير وعمله، مع ما في التَّقديم من مراعاة الفواصل، وهي تابعةٌ للدّلالة المعنويَّة.

براعة التَّعبير بـ﴿سَٰبِقُونَ﴾ بعد ذِكْر ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾:

المسارعةُ ابتداءُ الأعمالِ والسَّبقُ ثمرتُها

عبّر بمُفرَدَة السَّبق بعد ذِكْر المُسارعة؛ للإشعار بأنَّهم جامعون بين مضمون كلٍّ منهما، فهم في أنفسهم يُسارعون في الخيرات، ويبادرون إليها رغبةً فيها، وهم مع غيرهم لا يرضَون إلّا بأن يكون لهم السّبق؛ فهم مُسارعون ابتداءً سابقون انتهاءً، وهذا من بديعِ الثّناءِ عليهم بأنْ وصفهم بالمسارعةِ في أعمالهم، ثم ثنَّى على ذلك بأنَّهم سابقونَ في مآل الأمر في تحصيل أثر الطّاعات وثمراتها؛ فالعطفُ بين الجُملتيْن من عطف اللّازم على الملزوم.

نكتةُ الإخبارِ باسمِ الفاعل:

أخبرَ عنهم باسم الفاعل ﴿سَٰبِقُونَ﴾؛ لما فيه من إشعارٍ بأنَّ وصف السَّبق إلى الخيرات والتّنافسِ من أجلها والحرصِ على إحرازها فيهم واقعٌ على سبيل التّجدُّد الاستمراريّ لا ينقطع، فيكون مستلزمًا للرُّسوخ والثّبات والدّوام.

غرضُ حذفِ متعلّقِ ﴿سَٰبِقُونَ﴾:

حُـذِفَ المفعولُ لـلـعـلـم بـه إيجازًا، أوْ تنزيلًا له منزلة اللّازم

حُذف مُتعلّق ﴿سَٰبِقُونَ﴾ اختصارًا للعلْم به، ولإفادةِ العموم؛ أيْ: سابقونَ النّاس[1]، أو سابقون غيرهم، أوْ أنَّه نُزِّل هذا الفعل المُتعدّي منزلة اللّازم، للإعلام بوقوع السَّبق منهم من غير نظر إلى مَن سبقوه، كما في الأفعال اللّازمة الّتي لا تحتاج إلى مفعولٍ في مثلِ قوله سبحانه: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258] وقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ [البقرة: 187][2].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 587.
(2) السّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 354.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القلب والفؤاد:

القلب ملحوظٌ فيه معنى التّقلُّب، والفؤاد ملحوظٌ فيه التّفؤُّد والتّوقُّد

سُمّي القلبُ لكثرة تقلّبه[1] وقابليّته للتّغيير، فالطّبع فيه عدم الثّبات، وهو اسم جنس على هذه المضغة في الجسد، وهو أعمُّ في الاعتبارات من غيره، والفؤاد يُطلَق على ما يُطلق عليه القلب لكن باعتبار معنى التّفؤد فيه؛ أيْ: الحرارة والتّوقُّد، يُقال: فأدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ، وهَذا فئيدٌ؛ أيْ: مَشْويٌّ، وسُمّيَ الفُؤادُ بِذَلِكَ لِحَرارَتِهِ[2]، وعلى هذا كان التّعبير به في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: 10]؛ لأنَّ قلبها كان متوقِّدًا مُحترقًا على وليدها، ولذلك قال بعده: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]؛ أيْ: ثبّتنا قلبها كي لا يتقلَّب بها إلى مكروه، فهنا أُطلق كلٌّ من الفؤاد والقلب على نفس الشّيء وذاته ولكنْ بالاعتباريْن المَذكوريْن.

الخوف والوجل:

الوجلُ أخصّ من الخوفِ مُطلقًا؛ لأنّه جامعٌ بين الخوف والرّجاء

الوَجَلُ استشعارُ الخوف[3]؛ أيْ: هو من مُقدِّمات الخوف وليس بخوف، فالخَوْف خلافُ الطُّمَأْنينَة، فيُقال: وجِل الرجل يَوجَل وجَلًا إذا قلق، ولم يطمئنَّ، ويُقال: أنا من هَذا على وجَلٍ، ومن ذَلك على طمأنينة، ولا يُقال: على خوفٍ في هَذا الموضع، وفي القُرْآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]؛ أيْ: إذا ذُكرت عَظمَة الله وقدرته لم تطمئنَّ قُلوبُهم إلَى ما قدَّموه من الطّاعَة، وظنّوا أنَّهم مُقصِّرون، فاضطربوا من ذَلك وقلقوا، ولفظ خافَ مُتَعَدٍّ، ووَجِل غير مُتَعَدٍّ، وصيغتاهما مُخْتَلِفَتانِ، وذَلِكَ يدلُّ على فرقٍ بَينهما في المَعْنى[4]، والوجَلُ مزيجٌ من الخوف والطَّمع، فوجودُ الطّمع والرّجاء فيه مقرونًا بالخوف والرّهبة

(1) الرّاغب، المُفردات: (قلب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فأد).
(3) الرّاغب، المُفردات: (وجل).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 243.

هو حالُ المؤمنين المطلوب منهم أن يوازنوا بين الخوف والرّجاء؛ وعلى هذا فالوجلُ أخصُّ من الخوف لأنّه خوفٌ يمازجه طمعٌ ورجاءٌ، ومعنى: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أيْ: والحال أنّ قلوبهم بين خوف الرَّدِّ ورجاءِ القبولِ[1].

المسارعةُ والمسابقةُ:

المسابقةُ فيها معنى المشاركةِ، والمسارعةُ لا تقتضيها فهي بمعنى المبادرةِ والتّعجُّلِ

أصل السَّبْقِ: التّقدّم في السّير، والاِسْتِباقُ: التَّسابُقُ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: 17][2] والمسابقة مفاعلةٌ منه؛ أيْ: لا بدَّ فيه من متسابقَيْن على الأقلِّ؛ ليقوما بالمسابقة والمنافسة فيما بينهما، ومنه المسابقة بالخيل والإبل، وأمّا المسارعة فهي من سرُع، وأصله خلافُ البُطء[3] بما يعني المبادرة إلى الشّيء والتّعجُّل إليه فلا يستدعي مشاركةً غالبًا؛ بل يدلُّ على سرعةٍ مبالغٍ فيها، وقد تُفيد الصّيغة المُشارَكةَ، كما أنَّ السّابق إلى الشّيء مُحرِزٌ له نائلُه، والسُّرعة من مقدِّماته وموجِباته، فالمسارعة تستلزم السّبق والوصولَ للهدف.

الخيرات والصّالحات:

لفظ الخيرِ أوسعُ دلالةً من لفظِ الصّلاحِ؛ فهو يشملُ الأعمالَ والأقوالَ والمُعتقَدَ

الخير خلاف الشّرِّ، ويُطلق على العطف والميل إليه[4]، والتّعبير بـ (الخير) أوسعُ دلالةً من التّعبير بالصّلاح، فقد تُعورف على أنَّ الصّلاح مُرتبطٌ بالأعمال فحسب، فيُقال: عمل صالحٌ، وفي الكتاب العزيز يتكرَّر كثيرًا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، أمّا الخير فهو أوسعُ من ذلك؛ فقد يكون الخير رأيًا حكيمًا، أوْ مشورةً سديدةً، أو شعورًا وعطفًا وحنانًا، أو قولًا طيّبًا أوْ مُعتقدًا صادقًا ونحو ذلك، كما أنَّه أيضًا لسعة دلالته يشمل الأعمالَ الصّالحة، والطّاعات بأنواعها؛ فالخير ما يرغبُ فيه الكلّ[5].

(1) محيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 170.
(2) الرّاغب، المُفردات: (سبق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (سرع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خير).
(5) الرّاغب، المُفردات: (خيّر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»